المجلة السعودية
للعلوم الإنسانية

المجلة السعودية للعلوم الإنسانية
Saudi Journal of Humanities

الإصدار الثالث عشر
المجلد (٤) العدد (٤)
(١- ١٤) ٢٠٢٦

آراء الشيخ محمد نسيب الرفاعي العقدية من خلال تفسيره التفسير الواضح على نهج السلف الصالح (ما يتعلق بمسمى الإيمان وحقيقته)

اليخينت صلاح حسن
(باحث ماجستير في قسم الشريعة والدراسات الإسلامية، تخصص العقيدة،بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز)
أ. د. فيصل بن زامل الشهراني
(أستاذ العقيدة بقسم الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز)

https://doi.org/10.65723/RMSP3658

تاريخ النشر: نُشر إلكترونياً بتاريخ ١٠ نوفمبر ٢٠٢٦ م

الملخص :

يهدف هذا البحث إلى بيان الآراء العقدية للشيخ محمد نسيب الرفاعي رحمه الله، من خلال تفسيره «التفسير الواضح على نهج السلف الصالح»، مع التركيز على المسائل المتعلقة بمسمى الإيمان وحقيقته. ويسعى البحث إلى استقراء ما أورده الشيخ في هذه المسألة، وضبط آرائه العقدية، ومقارنتها بما تقرره مصادر أهل السنة والجماعة؛ للكشف عن مدى موافقتها لعقيدة السلف الصالح. كما يتناول البحث تحرير مفهوم الإيمان وبيان حقيقته في ضوء ما عرضه الشيخ في تفسيره، بما يسهم في إبراز منهجه في تناول المسائل العقدية. وقد توخى الباحث الأمانة العلمية في عرض الآراء ومناقشتها، سائلًا الله تعالى التوفيق والسداد والهداية إلى الصواب.

الكلمات المفتاحية :

محمد نسيب الرفاعي، التفسير الواضح، العقيدة الإسلامية، مسمى الإيمان، حقيقة الإيمان.

Abstract:

This study examines the theological views of Shaykh Muhammad Nasib al-Rifa'i as presented in his exegesis, *Al-Tafsir al-Wadih 'Ala Nahj al-Salaf al-Salih* (The Clear Exegesis Following the Approach of the Righteous Predecessors), with particular emphasis on the meaning and essence of faith (Iman). It seeks to identify and examine the Shaykh's statements on this issue and compare his views with those established in the authoritative sources of Ahl al-Sunnah wa al-Jama'ah, in order to determine the extent to which his interpretation is consistent with the creed of the righteous predecessors. The study also aims to clarify the concept and nature of faith in light of the Shaykh's exposition in his tafsir, thereby highlighting his approach to addressing theological questions. Throughout the study, scholarly accuracy and objectivity are maintained in presenting and examining the relevant views.

Keywords:

Muhammad Nasib al-Rifa'i, Al-Tafsir al-Wadih, Islamic Creed, Meaning of Faith, Essence of Faith.

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله. أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إن لدراسة تراث الأمة وعلمائها أهمية كبرى؛ فقد بذل العلماء جهودًا كبيرة في بيان العقيدة الصحيحة والذب عنها، والرد على أهل الانحراف والضلال في الاعتقاد.

وقد أحببت أن أسلط الضوء على أحد علماء الأمة، وأن أدرس آراءه العقدية. وبعد مشاورة المشايخ الفضلاء، وقع اختياري على العلامة محمد نسيب الرفاعي رحمه الله تعالى؛ لسعة علمه بالعقيدة الإسلامية ومكانته بين علماء المسلمين. وجاء هذا البحث لدراسة آرائه العقدية فيما يتعلق بمسمى الإيمان وحقيقته، من خلال تفسيره المسمى «التفسير الواضح على نهج السلف الصالح».

أهمية الموضوع

تبرز أهمية الموضوع من جانبين:

أولًا: تعلقه بعلم العقيدة، وهو من أشرف العلوم وأجلها؛ إذ يجب على المؤمن أن تكون عقيدته صحيحة، خالية من شوائب الشرك والبدع العقدية وسائر الضلالات.

ثانيًا: المكانة العلمية للعلامة محمد نسيب الرفاعي رحمه الله تعالى، وجهوده في تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة.

منهج البحث

يقوم هذا البحث على ثلاثة مناهج: المنهج الاستقرائي لجمع المادة العلمية، والمنهج التحليلي لدراستها، والمنهج الوصفي لعرض آراء الشيخ محمد نسيب الرفاعي رحمه الله تعالى العقدية وبيان مدى موافقتها لمنهج السلف الصالح.

خطة البحث

تشتمل خطة البحث على مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة.

المبحث الأول: تعريف الإيمان.

المبحث الثاني: زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضله.

المبحث الثالث: الكبيرة وحكم مرتكبها.

المبحث الرابع: علاقة الإيمان بالعمل.

المبحث الأول: آراؤه في تعريف الإيمان

قبل تناول آراء الشيخ في هذه المسائل، يحسن أن نعرّف الإيمان لغة وشرعًا، وأن نعرض أقوال الفرق في تعريفه.

تعريف الإيمان لغة: مصدر آمن يؤمن إيمانًا، فهو مؤمن، ومعناه التصديق[1].

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية لم يرتضِ هذا التعريف، ويرى أنه غير دقيق؛ لأن الإيمان لا يقتصر على التصديق، بل يتضمن الإخبار والالتزام، بخلاف التصديق الذي يتضمن الإخبار فقط. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «لفظ الإيمان فيه إخبار وإنشاء والتزام، بخلاف التصديق»[2].

ويقول شيخ الإسلام في موضع آخر من الكتاب: «ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار، لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد»[3]؛ أي: تصديق الرسول فيما أخبر، والانقياد له فيما أمر.

1.انظر :تهذيب اللغة 1/209، لسان العرب 1/193

2.مجموع الفتاوى 8/530-531

3.المصدر السابق 638

ومما انتقده شيخ الإسلام على هذا التعريف أن لفظ الإيمان في اللغة لا يُقابل بالتكذيب كما يُقابل به لفظ التصديق؛ فمن المعلوم أن كل مخبر يقال له: صدقت أو كذبت، ويقال: صدقناه أو كذبناه، ولا يقال لكل مخبر: آمنا له وكذبناه، ولا يقال: أنت مؤمن له أو مكذب له، بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر[٤].

وينبغي التنبيه إلى أنه، بتتبع تفسير الشيخ محمد نسيب الرفاعي، لم أقف على تناوله للتعريف اللغوي للإيمان.

تعريف الإيمان شرعًا وما يدخل في مسماه

اختلفت الفرق في تعريف الإيمان شرعًا:

فقالت الجهمية: الإيمان هو المعرفة فقط[٥].

وقالت الأشاعرة: الإيمان هو التصديق[٦].

ومما ينبغي أن يُعلم أن طائفة من الأشاعرة نصروا مذهب السلف في الإيمان[٧].

وأما أبو الحسن الأشعري فله في ذلك قولان:

أحدهما: أنه التصديق، كما ذكر ذلك في كتابه «اللمع»[٨].

والثاني: كقول السلف الصالح وأهل الحديث، وهو تفسير الإيمان بأنه قول وعمل، كما ذكر ذلك في كتابه «مقالات الإسلاميين»[٩].

وقالت الكرامية: الإيمان هو النطق باللسان، ولو لم يعتقد بقلبه.

وقالت مرجئة الفقهاء: الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب، ولا تدخل الأعمال في حقيقته.

وهناك طائفة خامسة ظهرت في العصر الحاضر، يقول أصحابها: إن الأعمال شرط في كمال الإيمان الواجب أو كماله المستحب[١٠].

ويرى الشيخ الرفاعي أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

فقال في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾: «التائبون من الذنب إذا أذنبوا، والعابدون الله كما أمر، وبإخلاص لوجهه الكريم. ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ ربهم في السراء والضراء. ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾، والمراد به الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهذا هو المراد بالسياحة هاهنا، كما وصف أزواج النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ [التحريم: ٥]. وإن للسياحة معنى آخر، وهو الجهاد في سبيل الله؛ ففي الحديث أن رجلًا قال: يا رسول الله، ائذن لي

4.المصدر السابق 292

5.انظر :مقالات الإسلاميين 1/214

6.انظر :إحياء علوم الدين 1 /430، الإرشاد 342

7.ومنهم أبو العباس القلانسي، وأبو علي الثقفي، وأبو عبد الله بن مجاهد .انظر :الإيمان 7/119 ضمن مجموع الفتاوى

8.انظر :اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، 154

9.انظر :مقالات الإسلاميين 1/347

10.انظر :التعليق المختصر على القصيدة النونية، 2/647-648

بالسياحة، فقال النبي ﷺ: «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله». وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعضهم: السياحة في الأرض والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري؛ فإن هذا ليس بمشروع إلا أيام الفتن والزلازل في الدين. ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ وهم المصلون. ﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي: القائمون بأمر الناس بما هو معروف في الشريعة. ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، أي: القائمون بالإنكار على من فعل منكرًا. ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ في تحليله وتحريمه، علمًا وعملًا، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن الإيمان يشمل هذا كله».

فأدخل الحامدين في مسمى الإيمان، والحمد قول باللسان، وكذلك السائحين والراكعين، والصيام والركوع عمل بالأركان؛ ولهذا قال في ختام تفسيره لهذه الآية الكريمة: «لأن الإيمان يشمل هذا كله».

وقال في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: «بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، إيمانًا تامًّا راسخًا في القلوب. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: حققوا الإيمان بالعمل، فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصاموا رمضان، وحجوا البيت مع الاستطاعة، وجاهدوا في سبيل الله، ودعوا إلى دينه، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وصبروا على الدعوة في سبيله. ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾، أي: يرزقهم الهداية بسبب هذا الإيمان المنضم إليه العمل الصالح، فيصلون بذلك إلى الجنة. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: من تحت قصورهم وبساتينهم وسررهم المرفوعة. ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ التي لا تفنى ولا تنقضي ولا تزول».

ويدل ذكر الشيخ أركان الإيمان الستة، وهي من أمور الغيب، ووصفه الإيمان بأنه راسخ في القلوب، على أن الإيمان يتضمن اعتقاد القلب، كما صرح بأن الإيمان يتضمن العمل الصالح.

وقد دلت السنة على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، وأنه شعب ودرجات تندرج فيها الخصال الحميدة. قال النبي ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الإيمان شعب متعددة، تشمل أعمال القلوب، كالتوحيد والتوكل والخوف والرجاء، وأعمال اللسان، كالشهادتين والذكر والدعاء وقراءة القرآن، وأعمال الجوارح، كالصلاة والصوم وغيرهما. فمن أتى بعمل من الصالحات، أتى بشعبة من شعب الإيمان. وقد أخبر أن أعلى شعب الإيمان وأفضلها قول: لا إله إلا الله، وهو قول باللسان، ثم بيّن أن إبعاد ما يؤذي الناس عن طريقهم، من حجر أو شوك أو غيرهما، من أدنى شعب الإيمان.

وأخبر أيضًا أن الحياء شعبة من الإيمان، وهو عمل قلبي وخصلة من خصاله؛ فدل ذلك على دخول الأخلاق الحسنة في الإيمان. وقد جمع هذا الحديث بين الاعتقاد والقول والعمل، وبيّن دخولها جميعًا في مسمى الإيمان.

وبهذا يكون الرفاعي قد وافق عقيدة أهل السنة والجماعة في مسمى الإيمان؛ إذ قرروا أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل[11].

والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

11.انظر :كتاب الإيمان لابن أبي شيبة 51، الشريعة للآجري 1/274، أصول السنة لابن زمنين 207

أي: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ فأطلق عليها اسم الإيمان، وهي أفعال. وقد بوّب البخاري في صحيحه لهذه الآية، فقال: «باب الصلاة من الإيمان، وقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾»[12].

وكذلك بوّب الإمام الحافظ الترمذي لهذه الآية، فقال: «باب الصلاة من الإيمان»، وكذلك البيهقي في «شعب الإيمان»[13].

ومن السنة ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «آمركم بأربع: الإيمان بالله وحده، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا الخمس من المغنم».

وقد نقل الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم. قال الحافظ ابن رجب: «والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان قول وعمل»، وفي الحديث دلالة على أن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان.

وحُكي عن الشافعي رحمه الله أنه قال: «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركناهم أن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر»[14].

المبحث الثاني: زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضله

هذه المسألة متصلة بمسألة دخول الأعمال في الإيمان ومتفرعة عنها؛ فهل الإيمان يزيد وينقص؟

لم يُكثر الرفاعي من تناول هذه المسألة، إلا أن ما ذكره كافٍ في إيضاح معتقده في زيادة الإيمان ونقصانه؛ إذ قال في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: «أي: زادتهم تصديقًا، وهذا يدل على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، ويتوكلون على ربهم، لا يرغبون إلا إليه».

وقال عند قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾: «إلى إيمانهم، وهذا نص في زيادة الإيمان ونقصه. ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، أي: بهذه الآيات، بنزول الوحي وما فيه من المنافع».

وما قاله الرفاعي هنا موافق لما عليه أهل السنة والجماعة وسلف الأمة؛ فقد قرروا أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[15].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «مذهب أهل السنة والمتبعين للسلف الصالح أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»[16]. وأمثال هذه النصوص من أقوال السلف كثيرة جدًّا، وأكثر من أن تُحصى.

وقد تتابعت نصوص الكتاب والسنة الدالة على زيادة الإيمان وتفاضله، وأن الناس ليسوا فيه على درجة واحدة، بل بعضهم أكمل إيمانًا من بعض؛ فلا يُظن أن إيمان أدنى الناس كإيمان أبي بكر رضي الله عنه.

12.أخرجه البخاري :كتاب الإيمان :باب الصلاة من الإيمان 1 /29 رقم الحديث 40

13.شعب الإيمان للبيهقي 1 /119

14.شرح أصول اعتقاد أهل السنة 5/886

15.ينظر :الرسالة الوافية 172، كتاب السنة لعبد الله بن أحمد 307، كتاب الإيمان لابن أبي شيبة 51

16.انظر :الاستقامة، 186

وقد عقد البخاري بابًا في زيادة الإيمان ونقصانه، واستدل ببعض الآيات والأحاديث على ذلك[17].

قال ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: «وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد»[18].

وقد بوّب البيهقي في «شعب الإيمان»[19]: «باب القول في زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضل أهل الإيمان في إيمانهم»، مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

وقد دلت السنة على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب؛ فقال النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم خلقًا». فدل هذا الحديث على أن حسن الخلق من الإيمان، وأن من كملت أخلاقه كمل إيمانه، وبالعكس. قال الحليمي: «فدل هذا الحديث على أن حسن الخلق إيمان، وأن عدمه نقصان إيمان، وأن المؤمنين متفاوتون في إيمانهم؛ فبعضهم أكمل إيمانًا من بعض»[20].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

تبيّن هذه الآية أن المؤمنين من أمة محمد ﷺ ليسوا في مرتبة واحدة من حيث الإيمان والعمل، بل يتفاضلون وينقسمون إلى ثلاث مراتب أساسية:

أولًا: قال الرفاعي عند قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: «وهو المفرّط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات».

ثانيًا: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: «وهو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات».

ثالثًا: ﴿سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: «وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، والتارك للمحرمات والمكروهات».

فمن آمن بما جاء به الرسول ﷺ إيمانًا مجملًا، فلم يكذبه قط، لكنه أعرض عن معرفة أمره ونهيه وخبره، وعن طلب العلم الواجب عليه، فلم يتعلم ما وجب عليه ولم يعمل به، بل اتبع هواه؛ فإيمانه ليس كإيمان من طلب علم ما أُمر به وعمل به، ولا كإيمان من تعلّمه وآمن به ولم يعمل به. فهؤلاء، وإن اشتركوا في الوجوب، فإن من طلب العلم التفصيلي وعمل به أكمل إيمانًا ممن عرف ما وجب عليه والتزمه وأقر به، لكنه لم يعمل بذلك كله. وهذا المقر بما جاء به الرسول ﷺ، المعترف بذنبه، الخائف من عقوبته على ترك العمل، أكمل إيمانًا ممن لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول ﷺ ولم يعمل به.

17.كتاب الإيمان :باب قول النبي "بني الإسلام على خمس "7

18.تفسير ابن كثير 4/12

19.ينظر :شعب الإيمان 1/127

20.شعب الإيمان 1/129

فكلما علم القلب ما أخبر به الرسول ﷺ فصدّقه، وما أمر به فالتزمه، كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك، وإن كان معه التزام عام وإقرار عام.

وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها وآمن بها، كان إيمانه أكمل ممن لا يعرف تلك الأسماء، بل آمن بها إيمانًا مجملًا أو عرف بعضها. وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته، كان إيمانه به أكمل[٢١].

وهذا الذي تدل عليه الأدلة هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ فالتفاضل لا يقتصر على الأعمال الظاهرة، بل يشمل الإيمان الذي في القلب. والإنسان يجد في قلبه من الإيمان في بعض الأوقات ما لا يجده في أوقات أخرى، فإذا كان هذا التفاوت يقع للشخص الواحد، فالتفاوت بين الأشخاص أولى[٢٢].

المبحث الثالث: الكبيرة وحكم مرتكبها

قبل بيان معنى الكبيرة شرعًا، يحسن أن نذكر معناها لغة. فالكبيرة مشتقة من الكِبْر، قال ابن منظور[٢٣]: «الكِبْر: الإثم الكبير، وما وعد الله عليه النار».

وفي التنزيل العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

والكبيرة: الفعلة القبيحة من الذنوب المنهي عنها شرعًا، وسُمّيت بذلك لتعظيم أمرها[٢٤].

وقد اختلف العلماء في تعريفها، وتعددت أقوالهم فيها[٢٥]:

فقيل: كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه.

وقيل: كل ما نُهي عنه فهو كبيرة.

وقيل: كل ما ترتب عليه حد في الدنيا، أو تُوعّد عليه بالنار أو اللعنة أو الغضب.

وقيل غير ذلك.

والمأثور عن السلف، كابن عباس[٢٦]، وذكره أبو عبيد وأحمد، أن كل ذنب خُتم بلعنة أو غضب أو نار فهو من الكبائر، وهذا ضابط يسلم من القوادح الواردة على غيره.

21.انظر :كتاب الإيمان، 184

22.انظر :شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين، 225

23.هو جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن أحمد الشهير بابن منظور ، كان إمامًا في اللغة والتاريخ توفي سنة ٧١١هـ

24.لسان العرب 5/125

25.انظر :شرح الطحاوية 2 /525، فتح القدير 1/733، مجموع الفتاوى 11/650

26.مجموع الفتاوى 11/650-654

حكم مرتكب الكبيرة

تندرج هذه المسألة تحت باب من أبواب علم العقيدة، يُسمّى عند مؤرخي الفرق بمسألة الأسماء والأحكام. وهي تتعلق بمسمى مرتكب الكبيرة في الدنيا: أهو مؤمن، أم فاسق، أم كافر خارج عن الملة؟ وبمصيره في الآخرة: أيخلد في النار، أم يكون تحت المشيئة؟ وهذه من أوائل المسائل التي افترقت فيها الأمة.

وقد اختلفت طوائف المسلمين في ذلك.

فالخوارج يكفّرون بالذنوب، والمعروف عنهم تكفير مرتكب الكبيرة؛ فمن ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، كالسرقة والزنا وشرب الخمر، فهو عندهم كافر خارج عن الإسلام، مرتد حلال الدم، وهو في الآخرة خالد مخلد في النار[٢٧].

يقول شيخ الإسلام: «الخوارج يكفّرون بالذنب الكبير، أو الصغير عند بعضهم»[٢٨].

وذهب المعتزلة إلى أنه في منزلة بين المنزلتين، أي: بين الإيمان والكفر، وأنه في الآخرة خالد مخلد في النار[٢٩].

وذهب المرجئة إلى أنه مؤمن كامل الإيمان، وأنه من أهل الجنة إذا مات مؤمنًا موحدًا، وإن زنى وسرق وقتل[٣٠].

أما أهل السنة والجماعة، الذين هداهم الله لما اختلف فيه من الحق، فقالوا: إن مرتكب الكبيرة مؤمن ناقص الإيمان، فلا يكفر بمجرد ارتكابها، ولا يخلد في النار إن دخلها، وإنما ينقص إيمانه ولا يزول بالكلية؛ فهو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. أما استحلال المحرّم فله حكم آخر. وهذا من الأصول الاعتقادية المجمع عليها عند أهل السنة والجماعة[٣١].

قال شيخ الإسلام: «وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين، على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان»[٣٢].

وبعد دراسة رأي الرفاعي في هذه المسألة، تبين أن معتقده موافق لمعتقد أهل السنة والجماعة؛ فهو يرى أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، ولا يكفر بمجرد ارتكابها، ولا يخلد في النار.

وذكر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

فقال: «هذا دليل على أن المقتتلين من المؤمنين لا يُنفى الإيمان عنهم؛ لأنه سمّى المقتتلين مؤمنين، وما نفى إيمانهم، وأمر الفريق الذي لم يدخل في القتال بأن يصلح بينهم، وهذا دليل على أن المعصية لا تُخرج من الإيمان».

27.مقالات الإسلاميين 86، الملل والنحل 1/85

28.انظر :مجموع الفتاوى 19/151

29.مقالات الإسلاميين 1/274، الفصل لابن حزم 5 /51-57

30.مقالات الإسلاميين 1/147، الفصل لابن حزم 3/73

31.انظر :عقيدة أهل السنة والجماعة للحافظ أبي عيسى الترمذي 50، الحجة في بيان المحجة 1 /478، كتاب التوحيد لابن رجب 37، فتح المجيد في اختصار التمهيد 1/338

32.انظر :كتاب الإيمان لشيخ الإسلام، 176

ومن الأدلة التي استدل بها الرفاعي أنهم تحت المشيئة، وذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

قال: «أي: لا يغفر لعبد لقيه مشركًا. ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي: ما دون الشرك. ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: لعصاة المؤمنين؛ فهم إن شاء عذبهم ثم أخرجهم إلى الجنة، أو غفر لهم برحمته دون عذاب. ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾، أي: ذنبًا عظيمًا لا يُغفر إذا مات عليه».

ومن الأدلة القاطعة في الرد على من يرى كفر مرتكب الكبيرة: النصوص الصريحة في خروج من دخل النار من الموحدين؛ إذ لو كانوا كفارًا لما خرجوا منها. وقد بلغت الأدلة على ذلك مبلغ التواتر.

وقد نقل التواتر جمع من العلماء، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، قال: «ومذهب الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر أهل السنة والجماعة أنه ﷺ يشفع في أهل الكبائر، وأنه لا يخلد في النار من أهل الإيمان أحد، بل يخرج من النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان، أو مثقال ذرة من إيمان»[٣٣].

وما قرره الرفاعي هنا هو معتقد أهل السنة. يقول الإمام الصابوني[٣٤]: «ويعتقد أهل السنة أن المؤمن، وإن أذنب ذنوبًا كثيرة، صغائر وكبائر، فإنه لا يكفر بها، وإن خرج عن الدنيا غير تائب منها، ومات على التوحيد والإخلاص؛ فإن أمره إلى الله تعالى: إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة يوم القيامة سالمًا غانمًا، غير مبتلى بالنار، ولا معاقب على ما ارتكبه واكتسبه ثم استصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار؛ وإن شاء عاقبه وعذبه مدة بعذاب أهل النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها، بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار»[٣٥].

ويقول الإمام البيهقي، بعد ذكر الآيات والأحاديث الدالة على عدم كفر مرتكب الكبيرة، وأنه لا يخلد في النار، وأنه تحت المشيئة: «وعلى هذا درج من مضى من الصحابة والتابعين وأتباعهم من أهل السنة»[٣٦].

33.انظر :مجموع الفتاوى، 1/318

34.هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد النيسابوري الصابوني، الشافعي، من أئمة أهل السنة .سير أعلام النبلاء :18 /40

35.عقيدة السلف وأصحاب الحديث 82

36.الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للبيهقي 244

المبحث الرابع: علاقة الإيمان بالعمل

علاقة الإيمان بالعمل علاقة تلازم وارتباط وثيق؛ فالعمل الصالح ثمرة للإيمان ومكمل له، والإيمان أساس العمل والدافع إليه، فلا ينفك أحدهما عن الآخر. فإيمان القلب يوجب عملًا ظاهرًا بالجوارح، والعمل يثبت الإيمان ويزيده؛ فلا يتحقق الإيمان من دون عمل، ولا يُقبل العمل من دون إيمان.

مفهوم التلازم

المراد بالتلازم هنا ارتباط الظاهر بالباطن وتأثير كل منهما في الآخر؛ بحيث يستحيل وجود إيمان صحيح في الباطن من غير أن يظهر موجَبه ومقتضاه على الجوارح قولًا وعملًا، بل حيث وُجد الإيمان في الباطن لزم أن ينفعل البدن بالممكن من أعمال الجوارح. فالعمل الظاهر لازم للإيمان الباطن لا ينفك عنه، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم؛ فيُستدل بانتفاء العمل الظاهر بالكلية على فساد الباطن.

قال شيخ الإسلام في بيان هذا التلازم: «وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له، لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة. فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضًا تأثير فيما في القلب؛ فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل، والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه»[٣٧].

وقال أيضًا: «ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة، لزم وجود الأفعال الظاهرة؛ فإن الإرادة الجازمة إذا اقترنت بها القدرة التامة، لزم وجود المراد قطعًا، وإنما ينتفي وجود الفعل لعدم كمال القدرة، أو لعدم كمال الإرادة، وإلا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختياري»[٣٨].

ويرى الرفاعي أن ثمة تلازمًا وثيقًا بين ما يستقر في القلب وما يصدر عن الجوارح من قول وعمل. فالعمل الصالح عنده ثمرة للإيمان المستقر في القلب وتطبيق عملي له، وهما قرينان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر في حال الإيمان الكامل.

فالإيمان عنده هو الأساس الباطن الموجّه للعمل، والعمل هو البرهان الظاهر عليه والتطبيق العملي له.

قال الرفاعي عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: «أي: حققوا إيمانهم بالعمل الصالح».

37.انظر :مجموع الفتاوى، 7/541

38.انظر :مجموع الفتاوى، 10/272

وكذلك عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: «أي: صدقت قلوبهم بجميع الأركان، وعملت جوارحهم بالأوامر، وتركت المناهي».

وقال الرفاعي أيضًا عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: «أي: دللوا على إيمانهم بالعمل الصالح الموافق للشريعة، والخالص لوجهه الكريم».

وبهذا يتبين أن موقف الرفاعي من علاقة الإيمان بالعمل موافق لمعتقد أهل السنة والجماعة، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[٣٩].

بل يؤكد في تفسيره أن الإيمان رأس الأعمال الصالحة وأساسها وقاعدتها التي تُبنى عليها؛ فلا يقبل الله عملًا صالحًا من دون إيمان صحيح مستقر في القلب.

قال عند قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾: «أي: فيه دليل على أن العمل الصالح في حد ذاته ليس شيئًا إذا لم يقترن بالإيمان والتوحيد والكفر بالطاغوت».

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من جاء بالهدى والبينات.

وبعد:

وفيما يأتي أهم النتائج التي أظهرها البحث:

أولًا: وافق الرفاعي أهل السنة والجماعة في تعريف الإيمان بأنه قول وعمل واعتقاد.

ثانيًا: وافق الرفاعي أهل السنة والجماعة في القول بزيادة الإيمان ونقصانه.

ثالثًا: وافق الرفاعي أهل السنة والجماعة في حكم مرتكب الكبيرة.

رابعًا: وافق الرفاعي أهل السنة والجماعة في أن العلاقة بين الإيمان والعمل علاقة تلازم وارتباط وثيق.

39.الحديث رواه البخاري)52(، ومسلم)1599 (من حديث النعمان بن بشير

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، الطبعة الأولى.

٣. صحيح مسلم المسمى المسند المختصر من السنن، مسلم بن حجاج النيسابوري، حققه نظر محمد الفاريابي، دار طيبة، الطبعة الأولى.

٤. تهذيب اللغة: محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق الدكتور بشار عواد، دار المعرفة، الطبعة الأولى.

٥. لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي، ابن منظور، عبد الله علي الكبير وهاشم الشاذلي، دار المعارف.

٦. مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام: جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٧. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية.

٨. إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة.

٩. الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، عبد الملك الجويني، تحقيق أسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية.

١٠. اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تحقيق حمودة غرابة، المكتبة الأزهرية، الطبعة الأولى.

١١. التعليق المختصر على القصيدة النونية، للشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، تحقيق عبد السلام بن عبد الله السليمان.

١٢. الإيمان: الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، حققه محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية.

١٣. الشريعة للآجري: أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق الوليد بن محمد سيف الناصر، مؤسسة قرطبة.

١٤. أصول السنة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، المعروف بابن زمنين، تحقيق عبد الله بن محمد بن حسين البخاري، مكتبة الغرباء الأثرية، الطبعة الأولى.

١٥. شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق د. عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

١٦. شرح أصول اعتقاد أهل السنة، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي، تحقيق د. أحمد بن مسعود، دار طيبة.

١٧. الرسالة الوافية، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر الداني، تحقيق دغش بن شبيب العجمي.

١٨. كتاب السنة لعبد الله بن أحمد، تحقيق محمد بن سعيد القحطاني، دار ابن القيم.

١٩. الاستقامة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى.

٢٠. تفسير ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى.

٢١. شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين، الدار العالمية للنشر والتجليد، الطبعة الثانية.

٢٢. شرح الطحاوية، للقاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، والشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة.

٢٣. الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني.

٢٤. الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، تحقيق د. محمد إبراهيم نصير، ود. عبد الرحمن عميرة.

٢٥. عقيدة أهل السنة والجماعة للترمذي، تحقيق أبي معاذ بن عوض محمد، دار الوطن.

٢٦. الحجة في بيان المحجة، للإمام أبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني، تحقيق محمد ربيع المدخلي، دار الراية للنشر.

٢٧. التوحيد، للعلامة ابن رجب الحنبلي، تحقيق صبري سلامة شاهين، دار القاسم للنشر.

٢٨. فتح المجيد في اختصار التمهيد.

٢٩. كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة.

٣٠. عقيدة السلف وأصحاب الحديث، لأبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، تحقيق أبي أيمن المنصوري، دار المنهاج.

٣١. الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، أحمد بن الحسين البيهقي، حققه أحمد بن إبراهيم أبو العينين، دار الفضيلة للنشر، الطبعة الأولى.